العائد

شوقي بزيع

تمشي جنازتُهُ الهوينا ،
ثم ترفعها الأكفُّ الى مكانٍ غامضٍ
تمشي ويدفعها الدويُّ
يمشي جنوبيونَ خلفَ النعش ،
كوفيَّاتهم مصبوغةٌ بجبينه المثلوم . .
تتبعهم يدا امرأةٍ ،
تشمُّ قميصَهُ
وتعشّبُ الأيام من دمهِ البهي
هو الجنوبيُّ الشهيدُ ،
مروِّضُ القمح العنيدِ
يعودُ نحو الأرض ،
ملفوفاً بكيس الرملِ والعلم الممزَّقِ ،
أَفْسِحوا الخطى عليّ
لقوامِهِ الممشوقِ وهو يشفُّ حتى الموت ،
للوجهِ المضرَّجِ بالنعاسِ الشاعريّ
يمشي وتتبعهُ رياحينٌ
ويغمُر وجهَهُ خفرٌ طريّ

* * *

تمشي جنازته الهوينا
في جنوبٍ ما ،
وقرب تدفّقِ النيران تستلقي يمامتهُ المريضةُ
لم يعد سراً بأن العمر ولّى . .
والحياةُ تلألأت مثل النجومِ
على
شريط
الذكرياتِ ،
رأى عليٌّ نفسه طفلاً ،
يحوم على بحيرةِ روحهِ موجٌ
لفلاحينَ منسيينَ ،
أبصر سنديانا قصَّفته الريح
يركضُ في الهواء الطلق ،
أصداء استغاثاتٍ لأوديةٍ يحاصرها الحدادُ :
رأى علياً مقبلاً
في الجانب الفحميِّ
من تغريبة الدنيا ،
يجرُّ على مدى عينيهِ بيتاً من عتابا
خلَّعتهُ الريح
أو بئراً من السنوات مملوءاً دماً
وغصونَ تينْ
ورأى محاريثاً تخوِّضُ في ظلام يديهِ
يدفعها
وينهر تحت قرصِ الشمس ثيرانَ السنينْ
ها هو واقفٌ يتأمل الأمواج ،
تأتي ثم تذهب عند خطِّ العمر ،
تصبح طلقةً في كفِّ قاتلهِ
فيسقطُ
كالسؤالِ
على جبين الأرضِ ،
تجتمع المدينةُ حوله
وترى بأمِّ العين نعناع القرى الغافي
على خدَّيهِ ،
فلاحٌ وموجتُهُ
على رملِ الحقيقةِ عاريين ،
وعند مِحْجَرهِ القرى تبكي
كأرملةٍ ،
إذن متَّ !
انتهى عصرٌ من الصرخاتِ والضحكِ البريءِ ،
ولعبةُ الدوران حول بيوت قريتك
الصغيرةِ ،
متَّ معضوضا بناب البحر ،
حيث حلمتَ بالذهب المذوَّبِ
تحت ألسنةِ المياهِ ،
كأنه حلمٌ !
تغاورُ مع خيوط الفجرِ صمتَ الأرض ،
تحمل خبزك البلديَّ في زُوَّادةِ الروحِ
الفقيرةِ ،
ثم ترجع مع أذان العصرِ ،
محمولاً على أكتاف سنبلتينِ
من قمحٍ قديمْ
تمشي جنازته الهوينا
تحت أعمدةِ الجنوبِ وفأسهِ الدهريِّ ،
يفتحُ قلبه للشمس والطلقاتِ ،
يهوي
. . . .
. . . .
آهِ لو أمي معي لتنوحَ فوق سوادي
النبويِّ ،
لو كفٌّ تلوِّحُ لي من الأعلى
لأتبعها
وأركض باتجاه الأرض ،
لكني أموت مضرجا بالبحر ،
تحملني حقول التبغِ فوق دموعها الخضراء ،
أين أبي ليشهد موكبي الملكيَّ
يخترق الأزقَّةَ ؟
أين صوتُ أبي سهيلٍ
وهو يصعد من فضاء اللوزِ
ثم يموجُ مثل القمحِ في الريحِ البعيدةِ ؟
آه زُفوني ،
لأزهو كالعريس على خيولِ الموتِ ،
آ . . . ويـ . . ـها
سيوفكُمُ محناةٌ بلون الدم ،
لم تصدأ
ولم يهدأ خريرُ مياهها في الروح ،
آ . . . ويـ . . ـها
لماذا لم تجيئوا بالعروسِ لكي تقبِّلَ ثغْرَ
فارسها ؟
لماذا لم تسلْ عسلاً على شفتي مغنّيها ؟
لماذا ؟
لم يقل أحدٌ بأني متُّ ،
هاكم وردتي البيضاء فوق الصدر
رجلاي اللتانِ تزلزلان الأرض
في الأعراسِ ،
حنجرتي التي في أوج هذا الصمتِ
لم تصمتْ
ففيم تحدِّقون إليّ ؟
وا أسفي عليّ
كأني مت
كأني مت !

كنتَ السواد لناظريَّ
ولم تعد أحداً
سوى جفنٍ يحدِّقُ في شقوق الغيمْ
ها إن قامتك النحيلةَ

قد براها الضيمْ
ها أنت ترحلُ في دخانِ الأرض ،
لا أمرأةٌ بقربكَ كي تضمِّد وردتيْ عينيك ،
لا كفٌّ تنقِّب عن بياض يديكَ
شوكَ العمرِ ،
ضاع العمر
وانهدمتْ أناشيدي على ثغرِكْ
عيناك مطفأتانِ تحت النورج الوحشيِّ ،
تشرب منهما عصفورةُ الموتِ
التي جثمتْ على صدركْ
هيهات . . . لو كان الزمانُ يعود ثانيةً !
او الطلقاتُ تستدركْ
لو كان للخبّاز أن يشفيك
أو كانت تعيدُكَ عشبةٌ حياً
لنثرتُ كلَّ حشائش الدنيا على قبركْ

* * *

يا من تشقّين الدموعَ لكي تري سكّينها
في الصدر ،
هل لكِ وردةٌ ترثينها
حتى أزيِّنها بجثّتهِ وأبكيه ؟
ذاك الذي لا يشرب البخورُ عَثْرَتَهُ
ولا الزيتونُ يشفيهِ
إن كان يا جرحَ الأسى لم تندملْ فيهِ
عرِّج على دمه المنوِّمِ تحت قرصِ الأرضِ
والتمهُ
وبالطّيون غطّيهِ !

* * *

تمشي جنازته الهوَيْنا
ثم توقفها صنوبرةٌ لتجهش بالبكاءْ
تنكسُّ الاشجارُ هامتَها
ليعبرَ ،
والطيورُ على نوافذها تراقبُ نعشَهُ الغافي
وترمق حبَّتيْ عينيهِ ،
وهو يعبُّ ماء الزنزلخت ،
فتى الينابيعِ المتوَّجُ ،
يصعد الدفلى إلى دمهِ ويخرج منهُ
أكثرَ حمرةً ،
ويسير . .
تتبعه السنابلُ حاسراتِ الرأسْ
ظريف الطول مَرَّ كنسمةِ الرمانِ أوَّل أمسْ !
شاهدناه ،
قال البيلسانُ لأختهِ في الليل ،
كان يسير معصوباً بقش يابسٍ
وتسيل
منه
الشمس
شاهدناهُ
قال الزعتر البريُّ ، يخرج في ثياب العرسْ
فلاقيناه بالحناء والزوفى ،
سقيناهُ جمامَ الكأسْ
ولم نلمحْ ذبولَ القمحِ فوق جبينهِ المسرعْ
وغادرنا . . ولم يرجعْ
. . . .
. . . .
لماذا تسقطون ؟
وتتركون دمي وحيداً كي يجفَّ كوردةٍ
في الصيف ،
أقربكم الى قلبي يموتُ ولا أودِّعهُ ،
والمحكم جنائزَ في البعيدِ
ولا أشيِّعُ واحداً منكم الى مثواه ،
من سنتينِ لم تبصركُمُ عيناي
لم ألمحْ سنونوةً على أسلاكِ غصَّتكمْ
ولم أسمعْ ثغاءَ الشمسِ فوق جرودِ ما عزكمْ
ولم أشتمَّ خبزكُمُ الذي يحمرُّ فوق الصاج
من سنتينِ والأمواج تقذفني
إلى فلوات هذا التيهْ
شيءٌ تقصَّف في ثلاثيناتِ هذا القلب ،
لا أرثي علياً فيه بل أرثيهْ
لو كانت امرأةٌ تنام على شبابيكي
لأغفو ساعةً في العمرْ
لكنها ذهبتْ لتسكنَ في القصيدةِ
والرفاق تساقطوا
تحت
النسيجِ
المرُّ
يا ذاهبين الى الجنوبِ خذوا دمي حجراً
لتحضنهُ السفوحُ
فلديَّ سنبلةٌ هناك
أريدها أن تنحني فوقي
ويشرب خوفَها جسدي الجريحُ
لو أستطيعُ لسرت ـ رغم حديد هذا العمر ـ
نحو قبور موتاكمْ
ولكن المدى بحرٌ
وهذا السيرُ فوق الماء ينقصه المسيحُ
لو أستطيع جعلتُ قوسَ الروحِ قنطرةً
ليعبر فوقها جرسُ الثرى المهدورُ
والقمرُ الذبيحُ
لو أستطيع لصرتُ في فجر الحسينيّاتِ مئذنةً
وأعلنتُ انتسابي للتراب ،
فلي هناكَ أحبَّةٌ سقطوا
سيجمعني وأياهم ضريحُ
ولي هناك شجيرةُ الخروبِ
باقيةٌ مع الأيام
ما دامت تعرِّش بذرةٌ وتهبُّ ريحُ

* * *

نَمْ يا عليّ
نَمْ يا وَرثَ الصخرةِ الكبرى
لأحلام الجنوبيين ،
ناصبةٌ لقبر طفولتي أنت ،
اقتراب دمي من الفصل الاخير لهذه الفوضى
المسمَّاةِ : الجسدُ
في الشُّبرقِ الغافي على الوديان صمتكَ ،
في حداءِ الأمهاتِ سقوطك الدمويّ ،
كم ستكونُ قرب النار في السهرات ،
تذكرك العجائز في مجالسهنَّ ،
يستدركنَ : كانْ
هل كنتَ حقا ؟
أم غفتْ سهواً على جفنيك ناياتُ الزمان !
نم يا عليُّ الانتظارِ الصعبِ
فوق ترابِ ذاك التلِّ
فلسوف تنهض من عظامكَ سكّةٌ
وتشقُّ هذا الإنهيارَ بنصلها الأجملْ
وتقاومُ المحتل .
وتقاومُ المحتل